القصَّةُ الثَّالِثَة

طريدُ الإنسانية . .

« قصةٌ من الأَدَبِ الفَرنسىِّ »

« جُون فالجان »

كان « جون فالْجَان » ابناً لنجارٍ ، تُوُفِّىَ وتَركهُ صَغيرًا ؛ فقامَتْ أُختُه الكبرَى بتربيتهِ والعنايةِ به ، حَتى وجَدَ له عملاً يَكْسِبُ منه قوتَه . ولَكِنْ حدَثَ حينما بَلغَ من العُمرِ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنةً أَنْ تُوُفِّىَ زَوجُ أُختِه ، وتركَ لها سَبعةً من الأَطفالِ الصِّغار ، فلم يَنْسَ « جون » جَميلَ أُختِه ، ورأَى وَاجبًا علَيه أَن يَكفُلَ أَولادَها ، ولكنَّه وجَد صعُوبةً فى إطعامِهم والإنفاقِ عَليهم ؛ لأَنَّ عَملَه لايُدرُّ عليه إلا قليلًا من المال .

وفى يوم من أَيامِ الشِّتاءِ لَم يَجدْ عَملا يَعْمَلُه ، معَ رَغبتِه فى العمَل ، وحُبِّه له ، وقُدرَتهِ عليه . ولم يَجد الأَطفالُ خُبزًا يَقْتاتون بِه ، فأَخَذوا يَبكونَ حتَّى

كادوا يَموتونَ من شِدةِ الجوع . فلَمْ يُطِقْ صَبراً ، وخَرجَ لَيلاً وذهَبَ إلى حانوتِ خَباز ، وكَسَرَ نافذتَه ، وأَخذَمعه إلى بَيتِه رغيفاً من الْخبز لهؤلاءِ الأَطفالِ الجياع .

وفى الصباحِ التالِي قُبِضَ عليه مُتَّهماً بالسَّرِقَةِ ، وشَهدَتْ عَليه يَده المجروحةُ ، وأُرسِلَ إلى السِّجنِ ، ووُضِعَتِ الأَغلالُ والسَّلاسِلُ فى عُنُقِه ويَدَيْه .

مَكَثَ فى السِّجن أَربَعَ سَنَواتٍ ، وقبَل نهايتِها حاولَ الفِرارَ من ذلك السِّجن ، فقُبِض عَليه ؛ وحُكِم عليه بثلاثِ سَنواتٍ أُخرَى ، ثم حاولَ الهَربَ ثانيةً فلم يَنجحْ ، وكانت العاقبةُ أَنْ بَقِيَ فى السجن تِسعَ عَشْرَةَ سَنةً ، بدلاً من أَربع سَنواتٍ ، كلُّ ذلكَ من أَجل سَرقَةِ رغيفٍ من الْخُبز يُطعِمُ به أَطفالاً جِياعاً .

انتَهَتْ تلكَ الْحِقبة الطويلةُ ، وتركَ «جون فالجانُ» السجنَ ،وقد قسا قَلبُه ، وأَخذَ يَشعُرُ بسُخطٍ على العالَم وما فيه ، وصارَ إلى الحيونِ أَقْرَبَ منه إلى الإنسانِ .

نَفَرَ منه الجميعُ حتَّى أَصبحَ مَنبوذًا مُشَرَّدًا طريدًا ، يَنفِرُ من الناس ، والناسُ يَنفِرون منه . ذَهَبَ إلى فُندُقٍ صغير ليبحثَ عن عَمل أو مَأْوًى فطُرِدَ شَرَّطِرْدَةٍ ؛ فَقدعُرِفَ أَنه مُجرِمٌ خطِر اعتادَ الإجرامَ .

وما بالُك برجل يُحكَم عليه بالسِّجن تِسعَ عَشْرَةَ سَنةً ؟ وحيثما ذهبَ سَبَقَتْه أَخبارُه ، ونَبذَه كلُّ مَن التَجَأَ إليه أو تَوسَّل به ، ولم يَسْمَحْ له أَحَدٌ بالنوم حتَّى فى مَأْوَى كلبٍ من الكلاب ، أو بإعطائهِ شَيئًا من فَضَلاتِ الطعام . وأَيْنَ تَوَجَّه قُوبِلَ مُقابلَةً قاسيةً دُونَها كلُّ قَسوةٍ وغِلظَة . وصاحَ الكُلُّ فى وجهه : اخرجْ أَيُّها المجرم ، وإلاَّ دَعوتُ لكَ الشُّرطَةَ لتُكَبِّلَ يَدَيْكَ الآثِمَتَينِ بالْحَديدِ .

أَخذَ « جون فَالجَانُ » يَذْرَعُ الطُّرُقَ حتى اهتَدى إلى بَيتِ أُسقُف – وهو رئيسٌ دينىٌّ للمَسيحِيِّينَ – كانَ رحيمَ القلبِ ، كثيرَ العَطفِ ، عَظِيمَ الإحسان ،

تَمنَحُه الحكومةُ فى السنة سِتَّمائة جُنيه لما يُؤَدِّيه من الواجباتِ الدِّينيةِ. فكانَ يُنفِقُ على نَفسِه أربَعينَ جُنيها ، ويُنفِقُ الباقىَ على الفقراءِ ولمساكينِ من بَنِى الإنسان. وكانَ يَعيشُ عِيشَةَ الزُّهَّادِ ، لايُفكِّرُ فى نَفسِه ، بل يُفكِّر فى غَيرِه . يُحِبُّ الناسَ جَميعًا ، والناسُ جَميعاً يُحبونَه ؛ لأنه طَيبُ القَلبِ ، مُحِبٌّ للخير ، كثيرُ الإحسانِ .

وحينما دخل « فالجانُ » بيتَ الأسقُف انتبَه إليه كُلُّ منْ رآهُ ، فقد كان يَبْدُو عَلَى أساريرِ وجْهِهِ أنه رجلٌ خَطِرٌ كثيرُ الإجرام ، وما كان هذا المِسْكينُ مجرماً ،ولكنَّ البيئةَ الظالمةَ القاسيَة هى التى جَعَلتْهُ مُجرمًا.

تَقدَّمَ إلى الأُسْقُف . وصاحَ بصوتٍ مُرتفعٍ : أُنظُر !! . لَقَدْ كنتُ سَجيناً . وهَاكَ صحيفة لشخصيتى . ومنها تَرَى تلك الأحكام :

« أربعُ سَنواتٍ للسَّرقة ، وخمسَ عَشرَة سنة لمحاولةِ الهَرَبِ من السِّجن . ذلكَ الرجُلُ خَطِرٌ جِدًّا » ،

فالآنَ أنتَ تَعرِفُنى ، ورجائى أن تُعطِينَى قَليلا من الطعام ، وتَسمَحَ لى بالمَبيتِ ولَو فى مَربِطِ الخيل .

فَنظَر إليه الأسقُف وقال لَه : « اجلِسْ لِتَستريحَ وتُدْفِئَ نَفسَك . إنكَ سَتَتَناولُ العَشاءَ مَعى ، وسَتَنامُ فى حُجرةٍ خصَّة بك » .

لم يَستطعْ « جون فالجانُ » أن يُصدِّقَ هذا القَوْل ، فَقدعَوَّدَه المجتمعُ أن يَقْسُوَ عَلَيه فى غَيررحمةٍ ولا شَفَقةٍ .

اشتَدَّ فَرحُ « جون فالجان » لأنه وجَدَ إنساناً يَعطِفُ عليه فى النهايَةِ . وأخبرَ الأسْقُفَ بأن لَديه نقوداً يَستطيعُ أن يَدفَعَ منها لعَشائه ونومه ، ولكن الأسقُف قال له : « لقد أتيتَ قوماً أهلاً ، فمَرحَباً بك ، إذ هذا البيتَ ليسَ ببيتى ، ولكنَّه بَيتُ الإنسانية ، وهُو للفقراءِ والمساكينِ. لقد عَرَفْتُ اسمَك قَبلَ أن تُرِيَنى بطاقَتك . . إنكَ أخى ، وأنا أخوك » .

وبَعد العَشاءِ استَراحَ القسُّ والضَّيْفُ قَليلا ، ثمَّ

أَوَى كلٌّ إلى فِراشِه ، وفى أثناءِ ذَلك أعطى الأَسْقُف « فالجانَ » إناءً فِضيًّا به شَمعةٌ مُشْتَعِلةٌ . وذهَبَ مَعه ليُرِيَه حجرةَ نومِه التى أَعَدَّها له .

وفى مُنتَصَفِ الليل استيقَظَ « فالجانُ » وقد فاضَ قلْبُه كُرْهاً للعالَمِ ومَن فيه ، وشَعَرَ بأَن الوقتَ قد حانَ لينتَقِمَ لنفسِه مِن ذلك المُجتَمعِ القاسى الذِى لا يَعرِفُ الرحمةَ ، ولا يَشعُرُ بحقوقِ الأَفرادِ . تذكَّرَ السكاكينَ والشَّوكاتِ والملاعقَ الفِضيةَ التى استُعملَتْ فى العشاء ، فصَمَّمَ على أَنْ يَسْرِقَها ويَهرُبَ بِها ، فجمَعَ ما استطاعَ أَنْ يأْخذَه منها ، ثم نزَلَ إلى الحديقَة يَطلُبُ الفِرارَ .

وحينما استيقظَ الأَسقُف فى الصباحِ عَلِمَ من رئيسِ الخدَمِ أَن الأَوانِىَ الفِضِّيةَ قد سُرِقَتْ ، فقال : لقد فكَّرتُ مُنذُ مدةٍ ليستْ بالقصيرةِ فى التخلص مِن تلك الأَوانِى ، وكانَ من الواجبِ أَن أَتَصَدَّقَ بها على الفقراء ،

ليَستَعينوا بها فى مَعيشتِهمْ . ولا مِريةَ فى أَن ذلكَ الرجلَ

جون فالجان طريد الإنسانية

فقيرٌ ، وفى حاجةٍ إلى العَطف والشَّفقةِ والمَعونَةِ .

وفى وقت تَناوُل الطعام صَبَاحاً حَضَر خمسةٌ من الجنودِ إلى مَنزلِ الأُسقف ومَعَهم « جون فالجانُ » ؛ فقد قَبَضوا عليه وهو يَبِيعُ ما سَرَقه من الأَوانى الفِضّيةِ. فلما دَخَلوا نَظَرَ الأُسقف إليه ، وقالَ له : لقد عُدْتَ يا « فالجانُ » . إنى مسرورٌ لرؤيتك . وإنى أَمنَحُك هذِه الأَوانىَ الفِضيةَ الأُخرى ، وهى تساوى ثَمانيةَ جنيهات ، وقد نَسِيتَ أن تَأْخُذَها معَك ، فلِمَ لَم تَأْخُذْها مَع ما أَخَذْتَ من الأَوانى يا « فالجانُ » ؟

تأَثَّر « فالجانُ » كلَّ التأَثر لهذا العطفِ الذى لم يَنتظرْه ، وتَأثَّرَ الجنود لهذا المنظَرِ. ثم قال أَحَدهم : إنَّ هَذا الرجلَ قد أَخبرَنا بأَنَّ الأُسقُف العظيم . قد مَنَحه تلك الأَوانىَ الفِضيةَ ، ولكنَّنا ظَنَنَّا أنه سَرَقها وهَرَب بها ، فَقَبضْنا عليه وهو يَبيعها لأَحدِ التُّجار .

فقال الأُسقُف : لقد أَخطَأْتُم فى إرجاعِه . دَعُوه

يَذهب ؛ فقد وَهَبتُ له هَذه الأَوانىَ ليَستعينَ بها على الحياة . فخرجَ الشُّرَطُ ، وتركوا « جون فالجانَ » مع الأُسقُف. فسأَل «فالجانُ » الأُسقف : أَحقًّا أَنىِّ لن أَعودَ إلى السجنِ؟ وهل يُمكِنُنى أَن أَتمتعَ بالحرية وأَعيشَ حُرًّا؟

فأَجابَ الأُسقُف : حَقًّا إنكَ حُرٌّ ، ولن تعودَ إلى السجنِ بَعدَ اليوم . ولكن قبلَ أَن تَخرجَ خُذْ مَعك الأَوانىَ الفِضيةَ الأُخرَى . فَدَهِشَ « فالجانُ » كلَّ الدَّهشَةِ ، واعتَراه الذهولُ ، وأَخَذَ الأَوانىَ وهو يَشْعُر كأَنَّه فى حلم ، ثم قال الأُسقُف :

« لا تخفْ ولا تَحزَن ، وهَدِّئْ مِن رَوعِك ؛ فَلَستَ فى حاجةٍ إلى أَن تَهرُبَ من البابِ الخلفىِّ للحديقةِ ؛ فالبابُ الأَمامىُّ مَفتوحٌ لكَ دائمًا ليلًا ونهارًا ، لتأْتِىَ متَى شِئْتَ ، وتخرُجَ آمِناً متى أَردتَ .

زادَ تأَثر « فالجان » لذلك العَطفِ الذى لم يَعهَدْه من قبل ، وأُغمِىَ عليه ، وأَصابَه الذُّهول . فأَخَذَ

الأُسقف يَده وهَدَّأَ مِن رَوْعِه ، وبَدأَ يحادِثُه حتى عادَ إليه صَوابُه ، ثمَّ قالَ لَه : أَرجو أَن تنتفِعَ بهذهِ النقودِ فى مَعيشَتِك وحياتِك . فيمكنكَ أَن تَتجِرَ بها حتَّى تصِيرَ رَجلا أَميناً كما كنْتَ من قَبلُ ، ولكن «فالجان» لم يتَذكَّرْ أَنه وعد بشىءٍ مُطلقاً ، فوقَفَ يصغِى متأَثِّرًا ، والأُسقُف ينصحه قائلا : « جون فالجان » . أَنتَ أَخِى ، ولن تكونَ شَرِيدًا أَو طَرِيدًا بَعدَ اليومِ ، وستصير من الآنَ رَجلا مستقيماً كاملا. لقد دَعَوتُ الله لكَ أَن يَهدِيَك الصراطَ المستقيمَ ، ويبعِدَكَ عن الشَّرِّوارتكابِ الآثامِ .وإنِّى مستعدٌّ دائماً لمساعَدَتك فى أَىِّ وقتٍ ، فَاذهَب واعمَل، وبالله تَوفيقُك».

عِندئذٍ أَخَذَ قَلب «جون فالجانَ» يَتَرَدَّدُ بين الخير والشرِّ : أَيَختار الأَوَّلَ أَم الثانىَ ، ولكنَّ اللهَ قد أَجابَ الدعاءَ ، وأَخَذَتْ عَوامل الخير فى نفسه تتغَلَّبُ على بَواعِثِ الشَّرِّ ، حتى صَارَ رَجلا أَميناً طيبَ القلبِ

مستقيماً ، يحبُّه المجتمعُ بَعد أن نَفَرَ منه ، ويحسن إليه بَعدَ أن أساءَ إليه ، وأخَذ يَعمَل ويَشتغِل بالتجارةِ معتمِدًا على نَفسِه ، حتى نجحَ فى عَملِه ، وعاشَ شَريفاً ممَتَّعاً بحياة كلُّها أمانةٌ وإخلاصٌ .

أسئلة فى القصة :

(١) صف شعور « جون فالجان » نحو أخته .

(٢) لماذا سرق « جون فالجان » رغيف الخبز ؟ وما الذى حمله على السرقة ؟

(٣) سجن « جون فالجان » ، ثم حاول الهرب من السجن مراراً ، فما الذى ترتب على ذلك ؟

(٤) حكم على « جون فالجان » بالسجن ١٩ عاماً من أجل رغيف من الخبز يطعم به أطفالاً جياعاً ، فهل كان هذا حكما عادلا ؟

(٥) لماذا قسا قلب « جون فالجان » وسخط على العالم ومن فيه ؟

(٦) كيف كان الناس يعاملون « جون فالجان » ؟

(٧) صف حال الأسقف الذى اهتدى إلى بيته « جون فالجان » .

(٨) ما الذى شعر به « جون فالجان » حين استيقظ بعد منتصف الليل

فى بيت الأسقف ؟

(٩) بين موقف الأسقف حين جاءه الجنود الخمسة « بجون فالجان » مقبوضاً عليه ؟

(١٠) ماذا كان يقصد الأسقف من موقفه هذا ؟

(١١) لماذا أغمى على « جون فالجان » ؟

(١٢) كيف صار « جون فالجان » رجلا شريفاً طيباً ؟

(١٣) ما رأيك فى هذا القس النبيل ؟ وهل تتمنى أن تفعل مثله ؟ ولماذا ؟